الفصل الثاني

الإعجاز البياني الأدبي

لم يرتض أهل النظر أن يكون واحد مما سبق وجهًا من وجوه الإعجاز المقصود بالتحدي ، فقد رفضوا الصرفة مطلقًا حين لم يَرَوْا فيها معنى الإعجاز ، ورفضوا غيرها كذلك ، حتى ولو كان في نفسه مُعجِزًا ، مثل الإشارات العلمية الصادقة ، التي طابقها العلم الحديث بعد قرون ، ومثل الإخبار الغيبي عما سيكون وقد كان ، ومثل الإخبار عن الماضي الذي ليس لمعرفته سبيل عند البَشر ، ومثل التوجيه التشريعي الذي لم ينقض ولن ينقض لأنه تشريع حكيم عليم ، رفضوا كل ذلك ، وكان الحق معهم ، وقد طلبوا للإعجاز وجهًا آخر أو وجوهًا تشمل القرآن كله من الفاتحة حتى الخاتمة ، ولم يكن بد عند هؤلاء المحققين إلا أن يكون الإعجاز القرآني إعجازًا بيانيًا أدبيًا كامنًا في أسلوبه ونظمه ، وبلاغته وفصاحته ، وحول هذا المعنى وضع كثير من العلماء مصنَّفات متخصصة في بيان الإعجاز ، واكتفى بعضهم بالإشارة دون البسط ، فلم يضعوا في ذلك مصنَّفات . ونُبيِّن في هذا الفصل آراء العلماء في ذلك مقدِّمين أصحاب المصنَّفات قديمًا وحديثًا على غيرهم .

أولاً : أصحاب المصنَّفات

١ - الواسطي[١] :

وضع الواسطي كتابًا في الإعجاز ذكره ابن النديم[٢] وابن العماد[٣] وحاجي خليفة[٤] ، وعنوانه : « إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » .

---

(١) هو محمد بن يزيد الواسطي ، عالِم متكلم توفي في مطلع القرن الرابع الهجري سنة ست أو سبع .

(٢) الفهرست لابن النديم : ٣٨/١ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي : ٢٩٩/٢ .

(٤) كشف الظنون لحاجي خليفة : ٢٩٤/١ .

وعنوان الكتاب مُوحٍ بأن الواسطي كان يقول بالإعجاز البياني الأدبي رافضًا ما عداه .

ويؤيد هذا المحمل أن عبد القاهر الجرجاني شرح كتاب الواسطي شرحين ، وعبد القاهر من أبرز القائلين بالإعجاز الأدبي البياني ، وبحوثه في نظرية النظم معروفة ، وهذا يدل على أن عبد القاهر كان معجبًا بآراء الواسطي ، وأنه ربما انتفع بها في وضع كتابه « دلائل الإعجاز » فهما إذن متفقان مذهبًا .

وقد مال إلى هذا الرأي بعض المحدثين[1] ، ومع هذا فإن الجزم بهذا الحكم غير مستساغ لضياع كتاب الواسطي نفسه ، ولضياع شرحي الجرجاني عليه .

٢- الرماني :

سبقت الإشارة إلى أن الرماني يرجع وجوه الإعجاز إلى سبع جهات[2] ، إحداها الصرفة وهي أمر خارج عن حقيقة القرآن كما سبق ، لكنه لم يتحمس للصرفة كما تحمس لغيرها خاصة البلاغة التي جعلها وجهًا من وجوه الإعجاز ، ثم قسمها عشرة أقسام وتناول كل قسم منها بالشرح والتمثيل فكان بارعًا في ذلك كله .

● **اضطراب الرماني في الرأي :**

لكن ذكره الصرفة مع الوجوه الأخرى جعله كالمتناقض مع نفسه ؛ لأن الصرفة ترفع ما عداها فسواء أريد بها سلب العلوم الممكنة من المعارضة ، أو سلب الدواعي ، أو القسر والإلجاء ، فإن القائل بها لا يسوغ منه القول بغيرها في آن واحد ، والرماني يعترف بتوافر الدواعي لدى العرب لكنهم مع هذا تركوا المعارضة ، إذن فإن معنى الصرفة عند الرماني هو سلب العلوم أو القسر والإلجاء ولولاهما لكان من الممكن معارضة القرآن ؟! . هذا لازم مذهبه وإن لم يُصرِّح هو به ، فكيف يصح عند الرماني أن يكون للإعجاز منزع آخر مع الصرفة ؟

---

(١) انظر : أثر القرآن في تطور النقد ـ للدكتور زغلول سلام ص ٢٣٤ .

(٢) انظر ص ١١٠ من الفصل السابق .

وعلى أية حال فإن الرماني قد اضطرب في رأيه وربما كان ذكره الصرفة تقليداً ومتابعة أو لم يتضح له خطل الرأي فيها .

وعند شرحه لبلاغة القرآن فإنه لخَّص رأيه تلخيصا وافيًا وحسنًا حيث يرى أن الكلام من حيث التلاؤم ثلاثة أقسام : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا .

وقد ذكر للأول مثالاً قول الشاعر :

وَقَبْـــرُ حَـــرْبٍ بِمَكَـــانٍ قَفْـــرُ وَلَـــيْسَ قُـــرْبَ قَبْـــرِ حَـــرْبٍ قَبْـــرُ[1]

أما الثاني فقد ساق له ثلاثة أبيات[2] من الشِّعر هي :

وَمَتْنِـــي وَسِـــتْرُ اللهِ بَيْنِـــي وَبَيْنَهَـــا عَشِـــيَّةَ آرَامِ الكُنَـــاسِ رَمِـــيمُ

رَمِـــيمُ الَّتِـــي قَالَـــتْ لِجِيـــرَانِ بَيْتِهَـــا ضَـــمَنْتُ لَكُـــمْ أَلاَّ يَـــزَالُ يَهِـــيمُ

أَلا رُبَّ يَـــوْمٍ لَـــوْ رَمَتْنِـــي رَمَيْتُهَـــا وَلَكِـــنَّ عَهْـــدِي بِالنِّضَـــالِ قَـــدِيمُ

أما المتلائم في الطبقة العليا فهو القرآن وحده ، كله لا بعضه ونص عبارته : « والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بَيِّنٌ لمن تأمله »[3] .

● **نماذج من تحليلاته :**

قال في باب الإيجاز : « والإيجاز على وجهين : حذف وقصر ، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها ، بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف .

فمن الحذف : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ (يوسف:٨٢) ، و ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (البقرة:١٨٩) .. ومنه حذف الأجوبة وهذا أبلغ من الذِّكر وما جاء منه في القرآن الكثير »[4].

---

(١) نسب هذا الشعر إلى « الجن » ، وهو شاهد معروف عند البلاغيين .

(٢) ديوان الحماسة : ٢/١١٠ ، والكامل للمبرد : ١/٢٩ ، ٣٠ .

(٣) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) – ط . دار المعارف ص ٩٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٦ .

«وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضًا .. فمن ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة:١٧٩)، ومنه : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ (المنافقون:٤).. وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير ، وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز[١].

وقال في باب التشبيه : « .. ونحن نذكر بعض ما جاء في القرآن من التشبيه ونُنبِّه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ ﴾ (النور:٣٩) ، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة ، وعظم الفاقة ، ولو قيل : يحسبه الرائي ماء ، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغًا ، وأبلغ منه لفظ القرآن ؛ لأن الظمآن أشد حرصًا عليه ، وتعلق قلبه به ، ثم بعد هذه الخيبة ، حصل على الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار ... وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة»[٢] .

وقال في باب الاستعارة : «ونحن نذكر ما جاء في القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣) ؛ حقيقة «قدمنا» هنا : عمدنا ، و«قدمنا» أبلغ منه ، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم ، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال ، والمعنى الذي يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بيَّنا ، وأما «هباءً منثورًا» فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه حاسة»[٣] .

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٦ ، ٨٧ .

وعلى هذا النمط الرائع يمضي الرماني في كثير من الأمثلة التي ذكرها شواهد على الفنون البلاغية في الأبواب الثلاثة المذكورة ، وفي غيرها من الأبواب السبعة الأخرى ، وفي كل موضع ينتصر لأسلوب القرآن ويكشف مظاهر الجمال فيه ، ويخلص إلى أحكام نقدية مهمة حتى أصبح ما كتبه مصدرًا غنيًّا للاحقين سواء أكان ذلك في فنون البلاغة نفسها ، أو هي من حيث صلتها بإعجاز القرآن .

ومن هنا فإن فكرة الإعجاز البياني الأدبي كانت هي المسيطرة على منهج الرجل حتى وإن ذكرها ضمن ما يناقضها ـ الصرفة ـ ويكفيه أنه رائد في هذا السبيل فيما كتبه ابتكار وغناء وإن قَلَّ .

٣- الخطابي :

الخطابي[١] ناقد موضوعي ، وأديب مرهف الحس ، صادق الذوق ، وكتابه في الإعجاز ذو قيمة خاصة في موضوعه ، وقد بدأ كتابه بمناقشة الآراء التي قيلت في الإعجاز ولم تكن منه ، ثم رفضها .

رفض أن يكون وجه الإعجاز الإخباري عن الغيوب ، كما رفض بدعة الصرفة[٢] وهكذا ، ثم أخذ في بيان وجوه الإعجاز في نظم القرآن وتأليفه ، وقد وصل إلى نتائج عظيمة الأثر في فهم الإعجاز .

فقد بنى رأيه فيه على خصائص الأسلوب نفسه ، وحدَّدها في ثلاث جهات هي :

١- لفظ حامل . ٢- معنى به قائم . ٣- رباط لهما ناظم .

ثم حدَّد بعد ذلك أسباب عجز العرب عن محاكاة القرآن في ثلاث جهات أيضًا هي :

١- عجزهم عن الإحاطة بأسماء اللغة العربية وألفاظها التي هي ظروف المعاني وحواملها .

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي المتوفى عام ٣٨٨ هـ .

(٢) كتابه في الإعجاز (ضمن ثلاث رسائل) ص ٢٢ ، ٢٣ ط . دار المعارف .

٢- جهلهم بجميع المعاني التي تحملها تلك الألفاظ ، أي جهلهم بالمعاني كلها على سبيل الاستقصاء لا جهلهم بها مطلقًا ، وإن لم يصرِّح هو بهذا إلا أنّ المقام يقتضيه .

٣- عدم إدراكهم لجميع وجوه النظوم التي يكون بها ائتلافها وارتباط بعضها ببعض .

ويستشهد على هذا فيقول : «فقد روى أن عمر بن الخطاب - وهو من الفصاحة بمكان - كان يقرأ قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس:٣١) ، فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأبُّ ؟

وكان ابن عباس رحمه الله يقول : لا أعرف «حنانًا» ، ولا «غسلين» ، ولا «الرقيم» .

ثم يقول : «فأما المعاني التي تحملها الألفاظ ، فالأمر في معاناتها أدق ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام ، وبنات الأفكار» .

ثم يقول : «وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان» .

ويخلص من هذا كله إلى رأيه في الإعجاز على الوجه التالي :

١- «أنَّ القرآن إنما صار مُعجِزًا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمنًا أصح المعاني»[١] .

٢- صنيعه في القلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا أو منثورًا إذا قرع السمع خلص إلى القلب ، من اللَّذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ، ما يخلص من القرآن إليه»[٢] .

---

(١) انظر : كتاب الإعجاز للخطابي (ضمن ثلاث رسائل) ص ٣٦ . وما بعدها ط . دار المعارف .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

وبهذا يتضح رأي الخطابي في الإعجاز البياني ، إعجاز القرآن عنده كامن في روعة لفظه ، وحسن معناه ، ودقة نظمه ، وفي تأثيره في النفوس وسريانه إلى القلوب .

٤- الباقلاني :

يعتبر كتاب الباقلاني - بحق - أهم ما كُتِبَ قديمًا في هذا الموضوع ، وقد حاز رضا المتأخرين ، فأكثروا من الثناء عليه والذي يهمنا - الآن - أن نستوضح رأيه في الإعجاز ، ونبيِّن قيمته في إيجاز لاستفاضة ما كُتِبَ في هذا المجال .

لم يهجم الباقلاني على المشكلة هجومًا ، بل مهَّد للوصول إليه ، فذكر ما ذهب إليه غيره ، وذكر من ذلك ثلاثة آراء :

١- الإخبار عن الغيوب المستقبلة

٢- الإخبار عن الأمم والأحداث العابرة .

٣- القول بالصرفة .

ولكنه لم يرتض أن يكون واحد منها وجهًا من وجوه الإعجاز ، وبعد أن فرغ من الرد عليها بدأ يذكر خصائص الأسلوب القرآني على الوجه الآتي :

أولاً : خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب وفلومهم ، وفي ذلك يقول : « إن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق في الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله ، ولا يعجز أهل الصناعة ، ولا المتقدمين فيها عنه مع التحدي والتقريع بالعجز والقصور ، لأن العادة جارية بجمع الدواعي والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم في الصناعة ، وهذا أتى به النبي ﷺ قد خرج عن حد ما يُكسب بالحذق »[1] .

ويقول : « إنَّ عجز القوم عن معارضته دليل خروجه عن نمط كلامهم » .

ثانيًا : انفراده بالحسن رغم طوله ، وفي ذلك يقول : « إنه ليس للعربي كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة ،

---

(١) كتاب الإعجاز للخطابي (ضمن ثلاث رسائل) ص ٣٩ .

والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ، وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما يغنيه بعد من الاختلال»[1] .

ثالثًا : بديع تأليفه ، وفي ذلك يقول : « إنه عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ، ومواعظ ، واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة ، وشيمة رفيعة ....

ونجد كلام الناس البلغاء الكاملين ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف حسب اختلاف هذه الأمور»[2] .

رابعًا : حسن الربط ، وفي ذلك يقول : « إن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بيِّنًا في الفصل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظام ، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ، على أنَّ القرآن على اختلاف ما يتصرف إليه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب ، تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العُرف»[3] .

(ملاحظة : يمكن دمج هذه الخاصة مع السابقة عليها دون أن يمس ذلك جوهر الموضوع لأن الموضعين متشابهان إلى حد كبير كما ترى) .

خامسًا : بلاغته ، وفي ذلك يقول : « إن نظم القرآن وقع موقعًا من البلاغة ، خرج به عن حد العادة في كلام الإنس والجن ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا»[4] .

---

(١) كتاب الإعجاز للخطابى (ضمن ثلاث رسائل) ص ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٧ .

سادسًا : اشتماله على طرق تعبيرهم مع تفوقه ، وفي ذلك يقول : « إن الذي ينقسم إليه الخطاب من البسط والاختصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجود في القرآن ، وكل ذلك مما لا يتجاوز حدود كلامهم المعتاد في الفصاحة والبلاغة والإبداع »[١] .

سابعًا : خلابة عباراته دائمًا ، وفي ذلك يقول : « إن المعاني التي تتضمن في أصل وضع الشريعة ، والأحكام ، والاحتجاج في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعية ، وموافقة بعضها لبعض في اللطف والبراعة مما يتعذر على البَشر » [٢].

ثامنًا : تألق التعبير القرآني إذا قُرِنَ بتعبير آخر ، وفي ذلك يقول : « إن الكلام بين فضله ، ورجحان فصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة ، في تضاعيف الكلام ، أو تُقذف بين شعر فتأخذه بالأسماع ، وتتشرف إليه النفوس ، ويرى وجه رونقه باديًا عامرًا سائر ما يقرن به كالدُرَّة التي تُرى في سلك الخرز وكالياقوتة في واسطة العقد » [٣].

تاسعًا : فواتح سوره ، وفي ذلك يقول : « إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفًا ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة[٤] ، وجملة ما ذُكِر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهي أربعة عشر حرفًا ليدل المذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينتظم بها كلامهم »[٥].

---

(١) كتاب الإعجاز للخطابي (ضمن ثلاث رسائل) ص ٦١ .

(٢،٣) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ٦٥ .

(٥) هذا خطأ ؛ لأن تعداد هذه السور بلغ تسعًا وعشرين سورة لا كما ذكر المؤلف .

عاشرًا : سهولته وامتناعه ، وفي ذلك يقول : « إنه سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشي المستكره ، والغريب المستنكَر ، وعن الصفة المتكلفة ، وجعله قريبًا إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه العبارة إلى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع الطلب عزيز المنال »[1].

• وقفة مع الباقلاني :

هذه نقول موجزة للوجوه التي بلغت عشرًا عند الباقلاني اختص أسلوب القرآن بها عما سواه ، وبها ـ عنده ـ وقع الإعجاز ، وقد أطال المؤلف في شرح هذه الوجوه واستطرد في ذِكر الشواهد استطرادًا أُخِذَ عليه ، لكنه ناقد ثاقب الفكرة قد يشفع له حُسن تحليله للنصوص ، وغوصه وراء أسرار التعبير ، مما وقع فيه من إطالة واستطراد ، وقد رأينا تداخل بعض الوجوه التي ذكرها بعضها مع بعض .

ويمتاز منهج الباقلاني في أنه يتخذ من وحدة العمل النظمي أساسًا لدراسته فهو لم يعتبر الآية المفردة ـ بله الجملة ـ موضعًا للإعجاز ، أو ظهور الروعة البيانية فيها ، فإعجاز القرآن عنده يبدأ بالسورة المتكاملة ، لأنها وحدة كملت لها عناصر وحدة الفكر والشكل ، وينتهي بالقرآن كله من حيث نفي الإعجاز عن الآية الواحدة وما دونها ويبدو عنده الإعجاز أكثر وضوحًا وتألقًا ، وليس بلازم ـ فيما نرى ـ أن هذه الطريقة تقلل من قيمة الإعجاز المفهوم من الكلمة الواحدة في موضعها من الآية وفي موضعها من السورة .

ولا شك أن خصائص العمل الفني تكون أظهر وضوحًا في الوحدة الكاملة : القصيدة في الشعر ، والقصة في النثر ، والسورة في القرآن .

ومن هنا اكتسب منهج الباقلاني عمقًا وأصاله إذ هو يقوم بدور الوسيط بين النص وقارئه .

---

(١) كتاب الإعجاز للخطابى (ضمن ثلاث رسائل) ص ٦٩ .

ولهذا فإنه عمد إلى سورة كاملة هي سورة النمل ، وحلَّلها تحليلاً جميلاً رائعًا ليكشف مواطن الجمال فيها .

● **البديع والإعجاز عند الباقلاني :**

الباقلاني يرفض أن يكون «البديع» الذي ذكروه وسيلة من وسائل كشف النقاب عن أسرار الإعجاز ، وإن كان البديع فيه على أبهى صورة ، وفي أجمل موقع .

والأساس الذي بنى عليه المؤلف رأيه في البديع من حيث دلالته على وجوه الإعجاز هو أن هذه الأمور تنقسم ، فمنها ما يمكن الوقوف عليه ، والتعمل له ، ويُدرك بالتعلم فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به ، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغة ، فذلك هو الذي يدل على إعجازه[1] .

وعلى هذا فإن بعض وجوه الإعجاز عنده يمكن أن تُفهم من جهة البلاغة ، مثل الفواصل ، والتصرف في الاستعارة البديعة ، والإيجاز ، والبسط ، وما إلى ذلك من مظاهر البلاغة .

ـ **والخلاصة** : أن ما كتبه الباقلاني ـ مهما أُخِذَ عليه ـ ثروة نقدية عظيمة ، ولفتات فنية رائعة ، ولهذا فإن كتابه في الإعجاز هو خير ما كُتِبَ في عصره في هذا الموضوع ، ولم يُرَ حتى الآن ما يقاربه أو يساويه .

٥- عبد القاهر الجرجاني :

في مقدمة «الدلائل» يحدد عبد القاهر المراد بالنظم وهو أنه : تعليق الكلم بعضها ببعض .

وهذا التعلق بين الكلم يعتمد على ثلاث حالات :

أولاً : تعلق اسم باسم (الجملة الإسمية) ليكون خبرًا عنه أو حالاً ، أو تابعًا له (متعلقات الإسناد) .

---

(١) كتاب الإعجاز للخطابى (ضمن ثلاث رسائل) ص ١٤٤، وقد ردد هذه الشبهة من قبل ابن حزم الظاهري كما تقدم .

ثانيًا : اسم بفعل ، ليكون فاعلاً له ، أو مفعولاً مطلقًا أو فيه أو له أو معه .

ثالثًا : حرف بواحد منهما ـ أي الاسم والفعل ـ ويقع ذلك على وجوه مختلفة[1].

ويرى أنه من الضروري في معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام ، وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنما تثبت لها المزية وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ [2].

فإدراك العلاقات بين الكلمة المفردة من حيث وضعها في جملة ، وما ينشأ عنها من معان أصلية أو ثانوية ، ووضع المفردات في نظام معين حسب ترتيب المعاني في النفس مع اختيار تلك المفردات ليلائم بعضها بعضًا ، وتتناسب من حيث هي نظم مع ما من أجله صيغ النظم ، كل ذلك جهات ضرورية يعلو بها الكلام ويتفاضل في الدلالة وحسن البيان .

وهذه المعاني إنما تأتي من مراعاة قوانين النحو ، وتطبيقها عند وضع الكلمة في أسلوب .. قال : «وليس النظم في مجمل الأمر إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها»[3].

● **الإعجاز كائن في النظم :**

وعلى هذا الأساس مضى عبد القاهر في «الدلائل» يعرض لوجوه تركيب الكلام ويحلل الأساليب والنصوص المختلفة ، سائرًا في دراسته على النهج الذي وضع أصوله هو محتكمًا إلى الذوق والعُرف اللغوي كثيرًا ، لافتًا إلى

---

(١) دلائل الإعجاز ـ شرح الدكتور عبد المنعم خفاجي ص ٣٣ .

(٢،٣) المرجع السابق ص ٢٤ .

مواطن الحسن والقبح في الأسلوب على أساس من التوجيه المعلل ، فكان بهذا رائدًا من رواد النقد الجمالي والذوق المصفى دون منازع .

وتراه يقترب من الحديث عن وجه الإعجاز في القرآن ، فيقول : « فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه لم يبق إلا أن يكون الاستعارة ، ولا يمكن أن تكون الاستعارة الأصل في الإعجاز ، وأن يقصد إليها ، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة ، في مواضع من السور الطوال مخصوصة ، وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف »[1] .

● **استدراك منصف :**

ويستدرك عبد القاهر سؤالاً عن وظيفة الاستعارة حين رفض أن تكون الأصل في الإعجاز هل هي خارجة عنه ؟ ويجيب عن هذا السؤال فيقول : « فإن قيل : قولك : « إلا النظم » يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز ؟ وذلك ما لا مساغ له ؟ قيل : ليس الأمر كما ظننت بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يُتصور أن يدخل شيء منها في الكلام وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يُتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره ، أفلا ترى أنه إن قدَّر في « اشتعل » من قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم:٤) أن لا يكون « الرأس » فاعلاً له ، ويكون « شيبًا » منصوبًا عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعارًا وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة فاعرف ذلك »[2] .

---

(١) دلائل الإعجاز ـ شرح الدكتور عبد المنعم خفاجي ص ٣٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦١ .

- **والخلاصة** : فالإعجاز إذن عند عبد القاهر في النظم والتأليف على طريقة مخصوصة وليس شيئًا خارجًا عنه ، وأن الوجوه البلاغية ليست أصلاً في الإعجاز ، وإنما تدخل في مقدماته من حيث إنها دعامة في بناء الأسلوب أو النظم الرفيع ، والقرآن إنما أعجز العرب بهذا الوصف دون ما سواه .

وقد حلَّل عبد القاهر في مواضع مختلفة بعض نصوص القرآن الكريم مبيِّنًا ما فيها من سمات أسلوبه الدقيق ، ونظمه الرائع ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ (هود:٤٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ (مريم:٤).

وكان في تحليله لهما بارعًا كل البراعة ، فاهمًا كل الفهم لجودة الأسلوب ومواطن الجمال فيه .

ولهذا كان منهج عبد القاهر ذا خطر عظيم في فهم النصوص ونقدها منتهيا من كل ذلك إلى نتائج تكاد تشبه القوانين الرياضية لا يكاد يختلف معه فيها منصف ، وكان كتابه « دلائل الإعجاز » فتحًا جديدًا في النقد الجمالي ، ومن أوضح وأعمق ما كُتِبَ في دلائل الإعجاز .

٦- جلال الدين السيوطي :

وضع السيوطي كتابًا في إعجاز القرآن أسماه « معترك الأقران في إعجاز القرآن » ويقع في ثلاثة أجزاء كبار وقام بتحقيقه لأول مرة الأستاذ علي محمد البجاوي ، وبلغت صفحات الجزء الأول منه « ستمائة وثلاثًا وأربعين صفحة »، وهو الجزء الذي تمكن لي الاطلاع عليه .

وعنوان الكتاب يوحي بموضوعه ، فقد جمع فيه السيوطي آراءً وأقوالاً مستفيضة حول إعجاز القرآن وعلومه المختلفة ، والكتاب مليء بالمعارف والتوجيهات العلمية فهو بحق سفر من أسفار الدراسات القرآنية الجادة .

وبلغت وجوه إعجاز القرآن في هذا الجزء خمسة وثلاثين وجهًا قال السيوطي في مقدمة ذكرها : « وقد أفرد علماؤنا - رضي الله عنهم - بتصنيف

إعجاز القرآن ، وخاضوا في وجوه إعجازه كثيراً ، منهم الخطابي والرماني ، والزملكاني ، والإمام الرازي ، وابن سراقة ، والقاضي أبو بكر الباقلاني[1] . وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين .

والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكي في المفتاح : «اعلم أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يُدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفِطر السليمة ، إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيها»[2] .

ويؤخذ من هذا النص ما يأتي :

أولاً : أنَّ السيوطي مؤمن بأن ما ذكره من الوجوه الخمسة والثلاثين التي عزا إليها الإعجاز القرآني ، والتي أنهاها بعضهم إلى ثمانين كما ذكر هو ، مؤمن بأن هذه الوجوه كلها تصلح توجيهًا لبيان الإعجاز القرآني .

ثانيًا : ومما يراه السيوطي كذلك أن وجوه الإعجاز لا تقف عند هذا الحد ، بل هي لا نهاية لها .

ثالثًا : أنه يتخذ من عبارة السكاكي التي نقلها دليلاً على رأيه ، والحق أن عبارة السكاكي لا يُفهم منها صراحة أن السكاكي يرى تعدد وجوه الإعجاز على الوجه الذي نهج عليه السيوطي ، فقد يكون الإعجاز عنده ـ السكاكي ـ وجهًا واحدًا يُدرك ولا يمكن ضبطه وجعله تحت مقياس معيَّن ، وقد يكون وجوهًا كثيرة لا تخضع لقواعد الحساب .

---

(١) فات المؤلف ذكر عبد القاهر الجرجاني والجاحظ من قبله ، وهو وإن كان له العذر في إغفال الجاحظ لضياع كتابه «نظم القرآن» فليس له عذر في إغفال عبد القاهر وكتابه «الدلائل» ذائع الصيت .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ٣/١ ، ٤ .

وعلى كل فإن استشهاد السيوطي بكلام السكاكي غير مسلَّم ، فهل لاستقامة الوزن عامل واحد أدَّى أن يكون جميلاً آسرًا ، أم له عوامل متعددة ، الذي أفهمه أن السكاكي يرى أن الجمال الفني ـ وفي قمته الإعجاز ـ إحساس نفسي لا تتيسر العبارة عنه ، وذلك شأن الحقائق الكبرى .

فإذا رجعنا إلى ما ذكره السيوطي فإننا نجد بين ما ذكره وجوهًا هي قطعًا ليست من الإعجاز في شيء ، وإن كانت لازمة من لوازم القرآن .

من ذلك أنه ذكر أول وجه من وجوه إعجازه «العلوم المستنبطة منه»[1] ، ثم «كونه محفوظًا من الزيادة والنقصان»[2] ، و«مشتبهات آياته»[3] ، و«ورود مشكله»[4] ، و«وقوع ناسخه ومنسوخه»[5] ، ثم «ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات»[6] ، ثم «إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة»[7] ، ثم «تيسيره تعالى حفظه وتقريبه»[8] هذه وجوه ثمانية ، ولها مماثل لم نذكره ، أوردها السيوطي ضمن إعجاز القرآن وهي ليست من الإعجاز المقصود بالتحدي ، وقد راح بما له من سعة اطلاع يشرح كل وجه ذكره مدعومًا بالأمثلة .

وإذا صرفنا النظر عما وقع في الكتاب من وجوه ليست للإعجاز ، فإن جل الوجوه التي ذكرها هي في الواقع شرح وتفصيل للإعجاز البياني الأدبي ، وقد أورد من ذلك الكثير مثل : حسن تأليفه والتئام كلمه (١/٢٧) ، ومناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض (١/٥٤) . وافتتاح السور وخواتيمها (١/١٧١) ، إفادة حصره واختصاصه (١/١٨١) .

---

(١) معترك القران في إعجاز القرآن للسيوطي : ١/١٤ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص ٨٥ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ص ٩٤ وما بعدها .
(٥) المرجع السابق ص ١٠٨ وما بعدها .
(٦) المرجع السابق ص ٢٣٩ وما بعدها .
(٧) المرجع السابق ص ٢٤٠ وما بعدها .
(٨) المرجع السابق ص ٢٤٥ وما بعدها .

كما ذكر من ذلك وجوه مخاطباته ، ووقوع الحقائق والمجاز ، والتشبيهات والاستعارات فيه والتعريض ووقوع البدائع البليغة فيه واحتواءه على الخبر والإنشاء ... إلخ ، ولهذا فإن الباحث الذي يطلع على ما كتبه السيوطي يدرجه مع الجمهرة المحققة القائلة بأن إعجاز القرآن في نظمه وأدبه وبيانه ، وإن جمع هو بين وجهات النظر المختلفة في هذا المجال .

على أن السيوطي ـ على كثرة ما ذكر من وجوه ـ لم يذكر الصرفة واحدًا من بينها ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه يرفض هذا الرأي رفضًا يجعله ينأى عن مجرد ذكره .

● **نماذج من تحليلاته البيانية :**

قال في باب الاستعارة : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١١٢) استعير الحبل المحسوس للعهد وهو معقول . ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر:٩٤) استعير الصدع وهو كسر الزجاجة وهو محسوس للتبليغ وهو معقول ، والجامع التأثير وهو أبلغ من «بَلِّغ» ، وإن كان بمعناه ؛ لأن تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ ، والصدع يؤثر جزمًا»[1].

وقد فاته أن يحلل المجاز في «ضُرِبَتْ» وهو تعبير له دور مهم في رسم الصورة الأدبية التي أوحت بها الآية الكريمة .

أما تحليله للآية الثانية : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر:٩٤) فقد كان رائعًا كما ترى .

وقال في باب التشبيه : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس:٢٤) فإنَّ فيه عشر جُمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه ، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا ـ في سرعة تعفيها وانقراض

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ١/٢٧٩ .

نعيمها ، واغترار الناس بها ـ بحال ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العُشب ، وزُيِّنَ بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلَّمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة ، فكأنها لم تكن بالأمس .

وقال بعضهم : وجه تشبيه الدنيا بالماء أمران :

أحدهما : أن الماء إذا أخذتَ منه أكثر من حاجتك تضررتَ ، وإن أخذت قدر الحاجة انتفعتَ به ، فكذلك الدنيا .

والثاني : أن الماء إذا أطبقتَ عليه كفك لتحفظه لم يحصل فيه شيء ، فكذلك الدنيا[1] . وفي هذا القول تسامح لأن المشبَّه به هو جملة التركيب لا الماء وحده .

٧- الرافعي :

الرافعي رائد من رواد النهضة الحديثة ، وكتاباته تتسم بالعمق والأصالة ومنها ما كتبه حول إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

وقد خصَّهما بكتاب ، كتب فيه فصولاً عن الإعجاز القرآني بعد أن سرد أقوال السابقين فيه ، وقد أبان في مقدمتها أنه سيتناول الإعجاز القرآني من غير الجهة التي مضى عليها الأقدمون ، بعد أن أوضح أن الإعجاز القرآني إنما يرجع إلى الأسلوب والنظم والتأليف . قال : «وهذا الأسلوب ، إنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله ، ليس من ذلك شيء إلا وهو مُعجِز . . وهو الذي قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيها ، وضربهم بالحُجَّة ، من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون»[2].

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ١/٢٧١، ٢٧٢ .

(٢) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ص ٢١٣ .

ويقول : «ورد عليهم من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه في كلماتها ، وكلماته في جملها ، ونسق هذه الجمل في جملته ، وما أذهلهم عن أنفسهم ، من هيبة رائعة وروعة مخوفة»[1] .

والإعجاز عند الرافعي ـ كما يبدو من نصيه المذكورين ـ إنما هو في النظم والتألف ، وعندما عمد الرافعي إلى الحديث المفصَّل عن الإعجاز نراه قد جمع في آرائه بين ما قاله الأوَّلون ، وبين ما اتفق له ولم يسبق لغيره ، فهو ـ إذن ـ لم يتحدث عنه من وجهة جديدة كما قال ، ولذلك فسنوجز آراءه إيجازًا غير مخل فيما يأتي :

● **وجوه الإعجاز البياني عند الرافعي :**

١- **الكمال اللغوي** : وذلك بالنزول عن التحدي بمثل القرآن كله .. على عشر سور مثله مفتريات ـ كما زعموا ـ إلى سورة واحدة من مثله .. ولو هم أرادوا هذه السورة الواحدة ما استطاعوها ؛ لأن إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوي في القرآن ، مستغرق فيه ، فلا يرون المعارضة تكون إلا على هذا الأصل وهو شيء لا تناله القُدرة .

٢- **التكرار** : الذي يجيء في بعض آيات القرآن فتختلف في طُرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة ، وهو مذهب للعرب معروف ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم للتوكيد والتهويل ، بَيْدَ أن وروده في القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفِطرة عن معارضته ، وأنهم يخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهمًا ، ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة ، لأنهم عجزوا عن السورة الواحدة ، فكان عجزهم عن السورتين ، وما عداهما أبين وأظهر .

٣- **وجه تركيبه** : فإنه مباين بنفسه لكل ما عُرِف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم ، على أنه يؤاتي بعضه بعضًا ، وتناسب كل

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ص ٢٢٤ .

آية منه كل آية أخرى في النظم والبلاغة ، على اختلاف المعاني وتباين الأغراض ... إذ يبدو كأنه قطعة واحدة ، والبلغاء تختلف أساليبهم في أنفسها من القوة إلى الضعف لأسباب وعِلل لا يصعب الكشف عنها في نفس القائل[١] .

٤- **لأنه ليس وضعًا إنسانيًا ألبتة** ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب ، أو مَن جاء بعدهم إلى هذا العهد ، ولا من الاختلاف فيه بد في طريقته ونسقه ومعانيه ، وقد كان هذا سببًا من أسباب ضعف المعارضة فيهم ؛ لأنهم لم يبلغوا شأوًا يؤهلهم للإتيان بمثل القرآن[٢] .

٥- **سلامة أسلوبه من القلق والاضطراب** ، فليس فيه من الغرابة التي يكسوها البلغاء كلامهم في تجويد وصفه وحبكه ، إنما فيه غرابة الانسجام ، والسهولة التي يسيل بها القرآن ، وهي سهولة الأوضاع الإلهية ، التي يعرفها كل الناس ويعجز عنها كل الناس[٣] .

٦- **ليس فيها بين الدفتين إلا رهبة ظاهرة** ، وإلا أثر من التمكن يصف لك منزلة المخلوق من أمر الخالق ، ولا تجد من أغراضه إلا ما كان في وصفه مادة لتلك الرهبة ، ولذلك الأثر والروح[٤].

٧- **ما في أسلوبه من اللين والمطاوعة** على التقليب والمرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة ، التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة ، وكلام الناس لا يحتمل مثل هذه الوجوه ، بل إنه كلما كان أدنى إلى البلاغة كان نصًّا في معناه ، ثابتًا في حيزه[٥] .

٨- **ما فيه من البلاغة والفصاحة يقتضيه اقتضاءً طبيعيًّا** ، بحيث يبنى هو عليها ولا تبنى هي عليه فكل ما فيه من مجاز وتمثيل وكفاية لا يصح في

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ص ٢٢٩ . (٢) المرجع السابق ص ٢٣٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٢ . (٤،٥) المرجع السابق ص٢٣٥.

الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه ، ولو أدرت اللغة على هذا الوضع[1] .

٩- **أن موسيقى ألفاظه نمط فريد** ليس معروفًا لهم في كلامهم ، حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال إليه ، فإنه إنما يسمع ضربًا خالصًا من الموسيقى اللغوية ، كأنما يوقع إيقاعًا لا يتلى تلاوة[2] .

١٠- **أنه لا يخلق على كثرة الرد ، وطول الدهر** ، ولا تجد لذلك سرًا إلا دقة النظم وإعجازه وخصائصه الموسيقية ، وتساوق حروفه على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالجهر والهمس والمد والغن ، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطًا وإيجازًا وإفرادًا وتركيبًا[3] .

١١- **أن القرآن انفرد بصوت الحس الذي** خلت من صريحه لغتهم وهو الذي يتكوَّن من دقة التصوير المعنوي ، والإبداع في تلوين الخطاب ، بمجاذبة النفس مرة ومداهنتها منها مرة أخرى ، والتنقل بها من شأن إلى شأن حتى تتصل بالمعنى وتصبح كأنها هي التي تطلبه فتقع في أسره .

هذا الصوت خَلَتْ منه لغتهم وانفرد به القرآن ، لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه ولم يعطوه[4] .

١٢- **أن بلاغة القرآن لا تعتمد على الخيال الشِّعري**، أو العادة الثابتة، أو العاطفة المطمئنة ، وإنما يرجع الأسر فيها إلى جرس الحروف في الكلمات ومواقع الحروف والكلمات وطريقة نظمها[5].

١٣- **أنه يتلطف في تحريك المشاعر** والرفق بها فلا تضيق به النفس ، ولا تتخونها منه ملالة .

١٤- **أن القرآن بمادته اللغوية أصبح فوق اللغة التي يحذقها اللسن من الناس** لأنها في القرآن في تركيب ممتنع أن يأتي بمثله الناس ، فخرجت

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ص ٢٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٧ .
(٣،٤) المرجع السابق ص ٢٥١ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم ، وكوَّنت طبقة عقلية من اللغة ومن ثَمَّ تتنزل الأفكار منزلة التوهم الطبيعي الذي يؤثر بالصفة ما يؤثر بالشيء الموصوف ، بل بما وفَّى وزاد[1].

١٥- **أن الحركات النحوية والصرفية في القرآن** لها من حكم البلاغة والفصاحة ما للكلمات والتراكيب ، لشدة ما بينها من تلازم واتساق ، وهذا سر من أسرار الإعجاز فيه[2].

• إيضاح لازم :

هذه خلاصة سريعة لما انتهى إليه الرافعي من خصائص أسلوب القرآن نقلناها من كتاب « إعجاز القرآن » ، متصرفين في كثير من عباراته توخيًا للإيجاز وشمول الأفكار حتى يمكننا أن نتصور رأيه في الإعجاز تصورًا واضحًا ، على أن الباحث ـ إذا رجع إلى كتابه يجد المؤلف لم يحدد لكل خاصة من الخصائص التي ذكرها مجالاً معيَّنًا ، بل التعميم كان طابعه فيما يقول ، وقد أخذ عليه هذا أحد المعاصرين[3] .

فمثلاً : الكمال اللغوي يمكن أن يندرج تحت بعض ما ذكره من الخصائص الأخرى مثل ما للحركات النحوية والصرفية من البلاغة ، والنغم الموسيقي ، واختصاص القرآن بطريقة في استعمال الكلمات كالإفراد دائمًا ، أو الجمع دائمًا ، وهكذا فهو شبيه بالباقلاني في تعدد الأقسام مع إمكان دمج بعضها مع بعض يُسر وانسجام .

• قيمة ما انتهى إليه الرافعي :

ليس من الإنصاف أن نُقلِّل من شأن ما كتبه الرافعي ، ففيه جدة وطرافة وعمق نظر ، ومن الجديد الذي له ما يأتي :

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٣) هو عبد الكريم الخطيب في كتابه « إعجاز القرآن».

(أ) ما أسماه : صوت الحس ، وقد سبق شرحه .

(ب) ما أسماه : التوهم الطبيعي .

(جـ) ما أسماه : الاقتصاد في التأثير على النفس .

أما ما عدا هذه الثلاث فإن الرافعي يدور معها في فلك السابقين ، وإن زعم هو غير ذلك كما تقدَّم .

فإن ما بقي بعد هذه الوجوه الثلاثة قد تطرق إليها مَنْ قبله ، وخاصة الباقلاني مع اختلاف في الأسلوب عند كل منهما .

● **ما يؤخذ عليه :**

أولاً : أنه ينهج في كتابه منهج التعميم ولم يذكر أمثلة تدعم فكرته ، وكان حريًّا به أن يفعل .

ثانيًا : نفيه اعتماد القرآن على الخيال الشِّعري ، فإن كان قصده من ذلك صور المجاز والتمثيل والتشبيه ، فهو قطعًا غير موفق فيما ذهب إليه ، ولا إخاله قد قصد ذلك وإن كان قصده ما يجنح إليه بعض الشعراء من التصورات الوهمية كأطراف النار في أعواد كبريت ، وما إلى ذلك مشبهًا بهما صورًا من الواقع ، إن كان يريد ذلك فنحن معه في شيء من الحيطة ، وإلا فإنه قد أثبت نظيره لما سماه : اللغة العقلية التي تتنزل المعاني منها منزلة التوهم الطبيعي .

وعلى كل فإنه لم يفصح عن مراده ولم يضرب أمثلة كعادته في منهج الكتاب .

ثالثا : أنه لم يضع فواصل دقيقة بين الوجوه التي أوردها ، ولهذا فإن الباحث لا يعرض للخطأ إذا دمج بعضها في بعض .

● **دفاع عنه :**

قال الرافعي : «فالقرآن معجز في تاريخه ، دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفِطرة الإنسانية في شيء فهي باقية ما بقيت»[1] .

لم يرض هذا القول عبد الكريم الخطيب ، ونقده على أساس أننا لو قلنا إن القرآن مُعجِز في تاريخه لكان معنى ذلك أن القرآن نزل خاليًا من صفة الإعجاز واكتسب هذا الإعجاز بمرور الزمن أيامًا ودهورًا[2] .

وهذا نقد وجيه ـ كما ترى ـ إذ لا يمكن أن يكون الإعجاز المتحدَى به هو هذا الوجه ، ولكن يمكن حمل كلام الرافعي على أن تلك الوجوه المعجِزة التي أفاض في الحديث عنها لم ينتقض منها وجه على مر الأيام والدهور ، فهي باقية كيوم تحدى بها ، وعلى هذا فلا حُجَّة للخطيب في نقده .

٨- محمد عبد الله دراز :

وضع دراز كتابًا دعاه «النبأ العظيم» ، أو «نظرات جديدة في القرآن الكريم» ، وقدَّم في هذا الكتاب دراسة غنية جدًّا عن القرآن الكريم ، وقد قسَّمها قسمين :

القسم الأول : خاص بتحديد معنى القرآن ، وقد استغرق منه اثنتى عشرة صفحة من القطع الكبير .

والقسم الثاني : وقفه على بيان مصدر القرآن ، أهو من صنع بَشر ؟ وهل في المراهب البَشرية ما يمكن أن يصدر عنها بيان في صفة هذا الكتاب العظيم ؟

ناقش هذه الفكرة متتبعًا جميع فروضها ، وانتهى من المناقشة إلى أن القرآن ليس له مصدر بَشري لا في نفس محمد ﷺ ولا في نفس غير محمد ، بل ذلك تنزيل العزيز الحكيم .

---

(١) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب .

(٢) المرجع السابق .

وقد استبد هذا القسم ببقية صفحات الكتاب البالغ عددها مائتين وعشر صفحات ، قدَّم خلالها بحوثًا عظيمة ونظريات رائعة في محيط القرآن وإعجازه ، والذي يهمنا من هذا الكتاب ما أجمله المؤلف من خصائص الأسلوب القرآني في قطعة قطعة منه ، وكانت عنده على الوجه الآتي :

● **خصائص أسلوب القرآن عند دراز :**

(أ) ، (ب) القصد في اللفظ .. والوفاء بحق المعنى[1] :

هذه خاصة لم تُعرف لغير القرآن ، فإنَّ أبلغ البلغاء من الناس لا يستطيع أن يأتي بكلام لفظه قليل ، ومعناه واف وهو إن اتفق له في الموضع الواحد والموضعين ، فلا يتفق له في جملة كلام ، شعرًا أو نثرًا ، وما هو بحاصل إلا على كلام نسبي غير مطرد ، بحسب ما أُوتِيَ من إلهام وتوفيق ، فأبلغ البلغاء إذا حفل باللفظ أضرَّ بالمعنى ، وإذا حفل بالمعنى أضرَّ باللفظ ، نهايتان مَن حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرَّتين ، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل إلى إحداهما .

خذ من القرآن مقدارًا من الكلام ، وقارنه بما يساويه من كلام البلغاء تجد عجبًا ، ثم انظر أي الكلامين تستطيع أن تتناوله بالتعديل أو التبديل دون أن تخل بمعناه ؟

ولو نزعتَ منه ـ أي القرآن ـ لفظة ، ثم أدرت لسان العرب لتضع موضعها لفظة أحسن منها لم تجد» .

(جـ) ، (د) خطاب العامة .. وخطاب الخاصة :

وهاتان غايتان تقصر عنهما همم الناس ، فمَن يخاطب منهم الأذكياء بالواضح المكشوف نزل بهم مستوى لا يرضونه ، ومَن يخاطب العامة باللمحة والإشارة حملهم على ما لا يطيقون .

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ، ص ١٠٣ .

فلا بد من التفرقة في الخطاب بين المقامين ، ولا يوجد في الناس مَن يُحسن هذا كائنًا مَن كان ، لا تجد ذلك على أتمه إلا في القرآن الكريم ، هو متعة العامة ونزهة الخاصة ، ميَّسر لكل مَن أراد[1] .

(هـ) ، (و) إقناع العقل .. وإمتاع العاطفة :

في النفس قوتان ، قوة تفكير وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى ، ولا تجد بليغًا يفي لك بحاجة القوتين في عبارة واحدة ، ولكنك تجد ذلك في القرآن الحكيم ، في أجمل صورة وأوضح بيان[2] .

(ز) ، (ح) البيان . والإجمال :

وهذه عجيبة أخرى لا تجدها في غير القرآن ، لأن الناس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتسع لتأويل ، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس ، أو اللغو الذي لا يفيد ، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد .

أم القرآن فإنه يستثمر برفق أقل ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني يستوي في ذلك مواضع إجماله ، التي يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التي يسمونها الإطناب ... ولذلك نسميه إيجازًا كله لأننا نراه في كِلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف[3].

● **تعقيب :**

هذه خلاصة أمينة لخصائص القرآن كما ذكرها دراز ، حاولتُ قدر المستطاع أن أحافظ على عبارته إلا ما قَلَّ من التصرف توخيًا للإيجاز .

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١١١ .

ونحن مع المؤلف في نتائجه ، لكننا لا نرى سنداً يمكن أن يعتمد عليه في عدة أسلوب القرآن إيجازاً كله ، وذلك للأسباب الآتية :

١- أنه خرق لما أجمع عليه العلماء من أن في القرآن إيجازاً وإطناباً ومساواة وقد أقاموا الدليل القاطع على كل أولئك .

٢- أن القرآن نفسه حين يقارن بين موضعين فيه اتحدا في الفكرة نجد فروقاً بين ذينك الموضعين أحدهما : ملحوظ فيه الإطناب في موضع ، والثاني : الإيجاز ، ومن أمثلة ذلك :

ما ورد في قصة آدم عليه السلام في سورة «أهل الكهف» حيث لم يتعد الآية الواحدة ، بينما جاء في مواضع أخرى كـ «الحجر» و«سورة ص» ـ مثلاً ـ مطنباً إذا ما قسناه بآية الكهف .

٣- أن هذا الرأي ـ اعتبار القرآن إيجازاً كله ـ فيه خروج بالأسلوب عن طبيعته ، وقد علمنا انقسام الكلام إلى هذه الأنواع الثلاثة .. وأن كلا منها مقتضى حال له دواعيه .

ومجاراة المؤلف على رأيه عجلة لا مبرر لها ، ولو أنه قال : «إن ما في اللفظ أو التركيب القرآني من ثراء المعنى وتعدد جهاته ما يكاد يعتبر القرآن على ما فيه من إطناب ومساواة إيجازاً كله» لكان له مندوحة من القول ، أما وقد أصرَّ على رأيه إصراراً ، فإن الحيطة تقتضي النظر إليه بحذر فلا ننساق .

ومهما كان في هذا الجانب من مغالاة ، فإن درازاً عالم ضليع ، وفيلسوف عميق النظر استطاع أن يخرج لنا كتاباً في القرآن فيه جدة ، ومتعة ، وتوجيه .

٩- محمد عبد العظيم الزرقاني :

وضع الزرقاني كتاباً في جزءين أسماه «مناهل العرفان في علوم القرآن» وهو كتاب غني بالمعلومات الوفيرة ، والاجتهادات الصائبة التي تختص بعلوم القرآن المختلفة .

وقد تحدث في الجزء الثاني منه[1] عن إعجاز القرآن وذكر لذلك أربعة عشر وجهًا هي على الترتيب :

لغته وأسلوبه[2] ـ طريقة تأليفه[3] ـ علومه ومعارفه[4] ـ وفاؤه بحق البَشر[5] ـ موقف القرآن من العلوم الكونية[6] ـ سياسته في الإصلاح[7] ـ أنباء الغيب فيه[8] ـ آيات العتاب[9] ـ ما نزل بعد طول انتظار[10] ـ مظهر النبي عند هبوط الوحي عليه[11] ـ آية المباهلة[12] ـ عجز الرسول عن الإتيان بمثله ![13] ـ الآيات التي تجرد الرسول من نسبته إليه[14] ـ تأثير القرآن ونجاحه[15].

ذلك وجه الإعجاز عنده ، وما رأيتُ بين من كتب في إعجاز القرآن مَن يخلط مثل هذا الخلط ، فيُدخل في الإعجاز ما ليس منه ، وهذه الأوجه التي ذكرها لا يدخل في باب الإعجاز منها سوى الأولين وإن أمكن دمجهما تحت «الأسلوب» .

وإلا فما صلة ما نزل بعد طول انتظار بالإعجاز ؟ وما صلة مظهر النبي عند نزول الوحي بالقرآن به ؟ كذلك وما صلة آية المباهلة به ؟

ثم كيف ساغ للمؤلف أن يجعل «عجز النبي عن الإتيان بمثله» عنوانًا لوجه من وجوه الإعجاز ؟ وهذا العنوان يوحي في ظاهره أن النبي ﷺ حاول أن يأتي بمثله فكبا !!

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني : ٢/٢٢٧-٣٠٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٨ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٤٧ .
(٦) المرجع السابق ص ٢٤٩ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٥٧ .
(٨) المرجع السابق ص ٢٦٣ .
(٩) المرجع السابق ص ٢٨٥ .
(١٠) المرجع السابق ص ٢٩١ .
(١١) المرجع السابق ص٢٩٥ .
(١٢) المرجع السابق ص ٢٩٦ .
(١٣) المرجع السابق ص٢٩٧ .
(١٤) المرجع السابق ص ٢٩٩ .
(١٥) المرجع السابق ص٣٠١ .

والآيتان اللتان استشهد بهما وهما قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:١٥،١٦) .

هاتان الآيتان صريحتان في أن الله ـ سبحانه ـ علَّم الرسول أن يرفض مثل هذه الاقتراحات ، والرسول إنما ردد ما أمره به ربه ، ولم يحاول المحاكاة فعجز كما يوحي العنوان ، فكان حريًّا بالمؤلف أن يتوخى الدقة فيما كتب .

● **اجتهد فخالف نصًّا !؟ :**

وبعد هذا نجد المؤلف يورد عنوانًا أسماه «وجوه معلولة» قال بعده مباشرة : «ذكر بعضهم وجوهًا أخرى للإعجاز ، ولكنها لا تسلم في نظرنا من الطعن ، لأن منها ما يتداخل بعضه في بعض ، ومنها ما لا يجوز أن يكون وجهًا من وجوه الإعجاز بحال .

ونمثل لهذا الذي ذكروه بتلك الأوجة العشرة التي عدَّها القرطبي وهي...»[1] ثم ذكرها ثم أعقب ذلك بدمج بعضها في بعض وخالف القرطبي في وجهين منها هما : الحِكَم البالغة وعدم الاختلاف والتناقض بين معانيه ، وقال : «إن واحدًا منهما لا يصلح وجهًا من وجوه الإعجاز لأنهما لا يخرجان عن حدود الطاقة ، ولأن كثيرًا من الناس لا يخلو كلامهم من حكم ، ولا يتعرض لتناقض أو اختلاف»[2].

هذا فحوى كلامه ، والمتأمل يرى أنه في نفيه عدم الاختلاف من بين وجوه الإعجاز قد خالف نصًّا قرآنيًّا ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني : ٣٠٨/٢ وما بعدها، والوجوه العشرة تجدها في تفسير القرطبي : ٦١/١-٦٨ .

(٢) نفس المرجع .

﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء:٨٢) فها هو القرآن يُصرِّح بأن سلامة القرآن من الاختلاف دليل على كونه من عند الله ، فهو إذن وجه أصيل من وجوه الإعجاز البياني ، خاصة وأن القرآن استغرق إنزاله ثلاثًا وعشرين سنة ، لكنك لا تلمح خلافًا بين أول ما نزل وآخر ما نزل من حيث استواؤه موضوعًا وشكلاً .

ونحن نحسب للمؤلف الوجهين الأوَّلين وهما إشارة واضحة إلى الإعجاز البياني ، كما لا نخالفه في الوجه الأخير وهو تأثير القرآن باعتباره لازمًا من لوازم أسلوبه ، وبلاغته الآسرة .

أما ما عدا هذا فليس من الإعجاز في شيء وإن تحمس لرأيه وحاول أن يقنع به الآخرين ، على أن ما أورده هو يمكن دمج بعضه في بعض مثل أسلوبه وطريقة تأليفه فكان حريًّا به أن يجتنب ما على مثله عاب الآخرين .

١٠- عبد الكريم الخطيب :

قد سبقت الإشارة إلى أن عبد الكريم الخطيب وضع كتابًا في إعجاز القرآن وقد أخرج هذا الكتاب في جزءين :

الجزء الأول : وقفه على دراسة الإعجاز في أقوال السابقين ، وفيه تحدث عن كثير من الموضوعات التي قد لا تتصل بالإعجاز مباشرة ، كالمعجزة والنسخ وما أشبه هذه البحوث .

أما الجزء الثاني : فقد دل عنوانه «الإعجاز في مفهوم جديد» على أن الخطيب سيدرس أو درس فيه وجوهًا جديدة للإعجاز لم يعرفها أحد قبله . والذي يهمنا بالطبع ما ذكره في هذا الجزء ، لأنه يمثل الجديد ـ كما يُشعر به العنوان ـ كذلك ـ يمثل رأي الخطيب نفسه في الإعجاز .

إذن فما هو ذلك الجديد الذي اهتدى إليه ؟ ننظر ...

يرى الخطيب أن الجديد في الإعجاز هو :

١- الصدق المطلق الذي نزل به القرآن ، وهو صدق لا تعلق به ذَرَّة من شك وقد جعل هذا الصدق والأثر القوي على النفوس والسلطان المتمكن من القلوب ، جعل كثيرًا من الناس يُقبلون على الإسلام عندما يسمعون القرآن فترق له قلوبهم ، كقصة إسلام عمر رضي الله عنه .

٢- علو الجهة التي نزل منها القرآن : وأن هذا العلو ليطلع عليه كل مَن يتصل بالقرآن قارئًا أو مستمعًا أو دارسًا ، مؤمنًا أو غير مؤمن . وهكذا .

٣- حسن الأداء : ويعني به المؤلف روعة النظم ، وحسن الصورة البيانية وقد اهتم الخطيب بهذا الوجه اهتمامًا فائقًا ، ومما ذكره فيه :

أن ألفاظ القرآن مختارة للدلالة على المعنى ، ومختار للفظ القرآني موضعه في الجملة أو التركيب الذي هو فيه ، ولذلك فإن نظم القرآن يخالف نظوم البيان عند العرب لأنه نظم مفصَّل بآيات مفصَّلة بفواصل[1].

ثم تحدَّث عن الفواصل القرآنية باعتبارها مظهرًا من مظاهر حُسن الأداء وأطال في هذا الفرع ، لكنه لم يأت فيه بأكثر مما ذكره السابقون اللَّهم إلا اختلاف طريقة العرض التي لا يسلم منها كاتب .

٤- روحانية القرآن : وهذا وجه رابع يرى الخطيب أنه جديد لم يقل به أحد ، وصلة هذا الوجه بالوجوه الثلاثة المتقدمة أن القرآن روح وتلك الوجوه (الصدق ، علو الجهة ، وحسن الأداء) كل أولئك تجليات الروح القرآنية . ولعل المؤلف يقصد بهذه الروحانية أثر القرآن على النفوس وما تجده من نشوة فرح ، أو جزعة خوف عندما تسمع أو تقرأ القرآن .

---

(١) كتابه في الإعجاز : ٢/٢٠٢-٢٥٢ .

● **ليس في الجديد جديد !**

هذه الأربعة هي ما ذكره الخطيب على أنها فتوح جديدة في قضية الإعجاز . وبعد .. فهل أضاف الخطيب جديدًا كما قال ؟

لا ... لم يأت الخطيب بجديد ، وإن اعترف هو بذلك قائلاً إن الجديد الذي جاء به هو حُسن العرض[1] .. ليكن هـذا صحيحًا ، أوَ ليس هـذا تناقضًا مـع ما يدل عليه العنوان ؟

إنَّ القرآن كله صدق ، لكنه ليس للإعجاز ، ولو كان كذلك لعارضوه بحديث كله صدق كوصف صحراء أو ليلة مقمرة .. ولما عجزوا .

والقرآن نازل من أعلى جهة .. ولكنه ليس للإعجاز ، ولو كان كذلك لما عابهم أن عجزوا عن معارضته ، لأن المعارضة تكون حينئذ أن يعلوا هم ويأتوا بكلام مثله ؛ لأن هذا مستحيل والإعجاز كان في أمر ظاهره الإمكان .

وحُسن الأداء عبارة لروعة النظم والتأليف ، وهذا كاد يجمع عليه السابقون الذين سبقوا الخطيب ، فليس ما جاء به بجديد ، إلا التسمية !

وروحانية القرآن قال بها الرماني منذ عهد طويل ، والخطيب يعلم هذا ، فكان أجدر به أن يلتزم الدقة في عنوان كتابه ما دام لم يأت بجديد !

١١- أبو زهرة :

وضع محمد أبو زهرة كتابًا في إعجاز القرآن أسماه «المعجزة الكبرى .. القرآن» ، وقد تحدَّث فيه عن نزوله وكتابته ، جمعه وإعجازه ، جدله وعلومه ، تفسيره وحكم الغناء به . وهو من الكتب ذات النفع في هذا المجال .

والذي يهمنا من هذا الكتاب رأي أبي زهرة نفسه في الإعجاز ، وهو يلخصه في العبارات الآتية ، قال :

---

(١) انظر كتابه الإعجاز : ٤١٣/٢ .

« إنَّ كل شيء في القرآن مُعجِز ، من حيث قوة الموسيقى في حروفه ، وتآخيها في كلماته وتلاقي الكلمات في عباراته ، ونظمه ، المحكم في رنينه . وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات ، وكون كل كلمة لفقًا مع أختها ، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته ، وتُوَحِّد غايته ، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه ، وكأن المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ ، وكأن الألفاظ قُطِعت لها وسُوِيت على حجمها .. » [1].

وهذا تفصيل للإعجاز البياني الأدبي .

ثم قال : « .. وإنه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتي بكل وجوه الإعجاز البياني ، ولكنه يقارب ولا يباعد ، ولنذكر ستة وجوه نتكلم فيها عسانا نصل إلى تقريب معاني الإعجاز من غير حد ولا استقراء كامل وهي :

١- الألفاظ والحروف . ٢- الأسلوب وما يكون من صور بيانية .

٣- التصرف في القول والمعاني . ٤- النظم وفواصل الكلمة .

٥- الإيجاز المعجز والحِكَم والأمثال والإخبار عن الغيب .

٦- جدل القرآن » [2] .

ونراه في هذا يخلط بين الإعجاز البياني الأدبي ، وبين ما يراه فريق من وجوه إعجاز أخرى مرفوضة عند التحقيق ، كالإخبار عن الغيب .

هذا .. وقد أخذ المؤلف في بيانه الأوجه التي ذكرها مستفيدًا من كتابات السابقين القدماء مثل الرماني والخطابي والباقلاني وعبد القاهر ، ومحدَثين مثل الرافعي .

والباحث يرى أن أبا زهرة في مذهبه الإعجازي بياني أدبي ، وإن جمع إلى الأدب والبيان خصائص أخرى للقرآن خارجة عن نطاق الإعجاز أدبًا وبيانًا .

---

(١) المعجزة الكبرى .. القرآن ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠١ .

١٢- عائشة عبد الرحمن :

أحدث كتاب وُضِعَ في إعجاز القرآن هو «الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق» إعداد عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)[١] .

واسم الكتاب مشعر برأي المؤلفة في فهم الإعجاز ، وهو كامن في بيان القرآن بقدر ما تتسع له هذه الكلمة «البيان» من معان وأفانين يسمو بها التعبير حتى يصل إلى مرحلة الإعجاز .

والكتاب من أثمن ما وقفتُ عليه حديثًا من الكتب الموضوعة في هذا المجال إذ لم تنح فيه المؤلفة منحى الوصف غير المعلل ولم يكن وصفها للإعجاز أكثر من توجيهها وتعليلها لخصائصه ، كما هو الحال عند غيرها . بل إن قارئ هذا الكتاب يرى المؤلفة تذكر كثيرًا من نصوص القرآن ثم تقارن وتدرس وتنتهي إلى نتائج مسلَّمة في كثير من الأحيان .

وموضوعات الكتاب : مدخل وثلاثة مباحث وخاتمة . المبحث الأول : يشتمل على المعجزة ، الجدل والتحدي ، وجوه الإعجاز والبيان القرآني ، البلاغيون والإعجاز (ص ٣٣-١٢١) .

والمبحث الثاني يشمل : فواتح السور وسر الحروف ، إضافة إلى جهد السَّلَف ، حروف قرآنية ، دلالات الألفاظ وسر الكلمة ، الأسلوب وسر التعبير (ص ١٢٣-٢٦٥) .

والمبحث الثالث .. وقفته على مسائل ابن الأزرق[٢] (ص ٢٦٧-٥٠٧).

---

(١) صدر سنة ١٩٧١ وطبعته دار المعارف ضمن سلسلة «مكتبة الدراسات القرآنية» ويحمل رقم (٦٣) . وهو في جزء واحد بلغت صفحاته ٥٢١ صفحة من القطع الكبير.

(٢) في الإتقان للسيوطي وفي غيره أن ابن عباس كان يجلس لتفسير القرآن في جمع من الناس فجاءه نافع بن الأزرق وصاحب له فأخذ نافع يسأل ابن عباس عن معنى الكلمات الغريبة في القرآن ويجيبه ابن عباس مستدلاً بما يرويه عن العرب في هذا الشأن وبلغت هذه المسائل (١٨٩) - (الإتقان للسيوطي : ١/١٢٦) .

والذي يهمنا هنا هو رأي المؤلفة في الإعجاز وقد علمنا إشارة اسم الكتاب إلى رأيها ، وهو كذلك في تضاعيفه ، وقد قامت بدراسة كثير من النصوص القرآنية وعالجت كثيراً من خصائص التعبير القرآني ، ونذكر فيما يلي نماذج مختصرة لنتائجها مع الإشارة إلى موضعها من الكتاب .

١- فهي ترى ـ مثلاً ـ أنَّ القرآن يُفرِّق بين كلمتي «حلف» و«أقسم» ونصها في ذلك :« .. لا يهون أبدًا أن نفسر القَسَم بالحلف وصنيع القرآن يلفت إلى فرق وثيق بينهما ، فإن لم نقل إنَّ القَسَم اليمين الصادقة حقيقة أو وهمًا ـ والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها ، فلا أقل أن يكون بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص فيكون القَسَم لمطلق اليمين بعامة ، ويختص الحلف بالحنث في اليمين على ما اطرد استعماله في البيان القرآني»[1] .

وكان مبنى هذا الاستنتاج عندها استعراض الآيات القرآنية التي وردت فيها الكلمتان ، ومن العرض ظهر أن القرآن لم يستخدم «حلف» إلا في مواضع الحنث ، بينما استخدم «أقسم» في مواضع الصدق الحقيقي أو ما كان مبعثه الاعتقاد المجرد .

فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ (القلم:١٠).

وقوله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ (التوبة:٥٦).

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (الواقعة:٧٦).

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (الفجر:٥).

٢- وهي ترى ـ مثلاً ـ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستغنى عن الفاعل في سياق الحديث عن القيامة وأهوالها ، إما ببناء الفعل للمجهول ، وإما بالإسناد المجازي ، أو بالمطاوعة[2].

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق لبنت الشاطئ ص ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٥ .

ومثال الأول قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (الحاقة:١٣،١٤) .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ (القمر:١) .

والآية صالحة للدلالة على الإسناد المجازي في إسناد الاقتراب إلى الساعة والمطاوعة في انشقاق القمر .

وقد حاولت المؤلفة توجيه ذلك بيانيًّا ونصها فيه : « فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحَدَث بصرف النظر عن محدثه والمطاوعة فيه بيان للطواعية التي يتم بها الحَدَث تلقائيًّا أو على وجه التسخير وكأنه ليس في حاجة إلى فاعل ، والإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغنى بها عن ذِكر الفاعل الأصلي »[1] .

وعلى هذا النهج الموضوعي تمضي الكاتبة في دراستها فلا تعتسف القول اعتسافًا ، بل تستخرج ملاحظاتها من النص ، وهذه طريقة مجدية وعملية في دراسة البيان القرآني ، ومحاولة الاقتراب من خصائصه ووجوه إعجازه ، كما نراها تنهج نفس الطريقة في دراستها لمسائل ابن الأزرق وبها استطاعت أن تُخرجها على صورة ممتعة لم تُسبَق إليها .

وليس معنى هذا أن كل ما وصلت إليه الكاتبة بمنأى عن الأخذ والرد فتلك قضية أخرى ، فقد يختلف معها غيرها بحق أو بغير حق ، وإنما أردتُ أن أبيِّن رأيها في الإعجاز ، وطريقتها في تناوله .

● **تنـــويه :**

قد يبدو للقارئ أنني اقتديتُ بالكاتبة في منهج هذا البحث في كثير من موضوعاته لتشابه المنهجين إلى حد كبير .

والواقع غير ذلك ، إذ تقدمت ببحث الماجستير للكلية وموضوعه : سحر البيان في مجازات القرآن ، نحوتُ فيه هذا المنحى في فصلين كبيرين ، وذلك

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق لبنت الشاطئ ص ٢٢٥ .

منذ ست سنوات ، وكتاب المؤلفة ظهر منذ سنتين ، بَيْدَ أنني مدين للجاحظ في هذا السبيل حيث لمح فَرْقًا بين استعمال القرآن لكلمتي «المطر» و«الغيث» . الأولى في مقام العذاب ، والثانية في مقام الإنعام ، كما لمح فَرْقًا بين كلمتي «الجوع» و«السغب» . كما أني مدين للخطابي حيث لمح فَرقًا بين «العلم» و«المعرفة» و«القعود» و«الجلوس»[1] ، ووجَّه كل هذه الكلمات توجيهًا فاقهًا .

ومن هنا كان توجيهي إلى هذا الورد العذب ، والخصائص الآسرة كما نحا فتحي رضوان هذا المنحى في مقالات له نشرتها جريدة الأهرام في رمضان عام ١٣٩٢هـ .

والظاهر أن اتجاه الباحثين قد تزايد إلى دراسة القرآن دراسة موضوعية شاملة ، ولهذا لزم التنويه .

● آراء منثورة في الإعجاز القرآني :

ذكرنا في الصفحات السابقة آراء أصحاب المؤلفات في الإعجاز القرآني ، وبدهي أن كثيرًا من العلماء لم يصنعوا رسائل أو كتبًا في الإعجاز ، ولكنهم أدلوا بآرائهم فيه ضمن بحوث أو مقالات منشورة .

وهؤلاء لم يأتوا بجديد إنما وقفوا من الآراء السابقة موقف الأرجحية والترجيح ، وها نحن نسجل هنا مواقفهم حسب موافقتهم على رأي منها ورفضهم ضمنًا للآخر .

أولاً : النظم والتأليف

أيَّد هذا الاتجاه القائل بأن الإعجاز كائن في النظم والتأليف كثير من العلماء قديمًا وحديثًا ، منهم الأصبهاني والزملكاني والقاضي عِياض .

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن دكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ .

فقد تحدث الأصبهاني عن مراتب تأليف الكلام ثم قال «فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص ، وبيان كون النظم معجزًا يتوقف على بيان نظم الكلام ثم بيان أن نظم هذا الكلام مخالف لنظم ما عداه»[1].

ويُفَرِّق الأصبهاني بين النظم المخصوص الذي هو صورة القرآن ، واللفظ والمعنى الذي هو أثره وعنصره ، وباختلاف الصورة يختلف حكم الشيء لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار ، فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذي هو الذهب أو الفضة[2] .

والقرآن عنده جامع لمحاسن جميع فنون الكلام ، على نظم ليس مثل نظومهم كما نقل السيوطي عن الزملكاني قوله : «وجه الإعجاز راجع إلى التأليف ، بأن اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنة»[3] .

أما القاضي عِياض فإنَّ نظم القرآن يمثل عنده الجانب الأهم في الإعجاز ، من حيث حُسن التأليف ، والتئام الكلام وبلاغته الخارقة عادة العرب[4] .

كما يرى أن للإخبار عن الغيوب حيث جاءت مطابقة لما أخبر به القرآن وما أشار إليه من أخبار الماضين مما يعثر طلبه على البَشر ، ولتأثير القرآن على السامعين والقارئين يرى لكل هذه العوامل أثرًا إضافيًّا في الإعجاز .

فهو من القائلين بأن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف وإن رأى وجوهًا إضافية للإعجاز .

ويرى ابن عطية أن الإعجاز واقع بالنظم وصحة المعاني ، وقال : «إن هذا ما عليه الجمهور» .

(١-٢) الإتقان للسيوطي : ٢/٢٢٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .

(٤) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض : ١/١٧٦ وما بعدها .

فالنظم ، وصحة المعاني ، وتوالي فصاحة ألفاظه هي وجوه الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم . قال : «ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علمًا ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظه تصلح أن تلي الأولى ، ويتبيَّن المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبَشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم بالضرورة أن أحدًا من البَشر لا يحيط بذلك ، ولهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ولهذا يبطل قول مَن قال : إنَّ العرب كان في قُدرتها الإتيان بمثله ، فلما جاءهم النبي ﷺ صُرِفوا عن ذلك وعجزوا [1].

والذي يظهر من هذه النقول أن القول بأن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف يغلب على الاتجاهات الأخرى ، ويكاد يمثل الرأي الذي لا يصح فيه خلاف .

وحتى الذين ذهبوا إلى وجوه أخرى غير النظم والتأليف لم ينسوا فضل نظم القرآن وتأليفه الخاص .

هذا عند الأقدمين .. أما المحدَثون فلا نكاد نرى مَن يخالف هذا الرأي منهم وإن أضافوا إليه إعجازًا آخر في مجال العلوم والتشريع فهو ما زال الرأي السائد في القديم والحديث .

ثانيًا : البلاغة والفصاحة

يتشكك كثير من الباحثين قديمًا وحديثًا أن تكون البلاغة والفصاحة من وجوه الإعجاز في القرآن مع اعترافهم بأن كُلاً منها يؤدي دورًا هامًا في سمو الأسلوب ووضوح المعنى .

من هؤلاء أبو بكر الباقلاني ، وعبد القاهر الجرجاني ، من الأقدمين ، وفريد وجدي من المحدَثين ، وسبب هذا الحكم ـ كما سبق ـ أن هذه الفنون يمكن التعمل لها ، والاحتيال عليها ، وما كان ممكنًا أن يُتعلم ويُحذق بالصنعة ، فلا يكون وجهًا من وجوه الإعجاز .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي : ٩٧/١ .

وعلى العكس من هذا . . فإن فريقًا آخر قد اعتبر البلاغة والفصاحة ، وجهًا من وجوه الإعجاز ، ومن هؤلاء القاضي عبد الجبار المعتزلي ، وفخر الدين الرازي ، وحازم ، والمراكشي .

قال الرازي : « ووجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب ، والسلامة من العيوب »[١] .

ويقول حازم[٢] : « وجه الإعجاز في القرآن حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه جميعه ، استمرارًا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد » .

ويقول المراكشي : « إن الإعجاز حاصل ببلاغة القرآن ، وروعة نظمه ، ليس إعجازه بمفرداته ولا بمجرد تأليفه ، ولا بحركات إعرابه ، ولا بصرف العرب عنه »[٣] .

هذان رأيان متقابلان والصحيح الذي يمكن قبوله أن المسألة وَسَط بين الفريقين ، فلا يمكن عزل البلاغة والفصاحة عن وجوه الإعجاز ولا يمكن كذلك جعل الإعجاز كله راجعًا إليهما .

بل هما ـ أي الفصاحة ، والبلاغة ـ عاملان من عوامل الإعجاز ، وليستا أوحديتين فيه : لأن المختار أن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف ، والفصاحة والبلاغة من أهم سمات النظم البليغ والتأليف المحكم .

أما عبد الجبار فقد رفض أن يكون للقرآن نظم مخصوص هو مرجع الإعجاز : « لأن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره ، فصارت الطُرق التي عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة ، كما أن قدر الفصاحة معتاد فلا بد من مزيد فيها ».

---

(١) الإتقان للسيوطي : ١١٩/٢ ، والبرهان – للزركشي : ٩٨/٢ .

(٢) الإتقان للسيوطي : ١١٩/٢ ، وحازم : هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني .

(٣) المصدر السابق ص ٤ .

« ولذلك لا يصح عندنا (يعني المعتزلة) أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ ، وحسن المعنى »[1] .

فعبد الجبار يُرجع الإعجاز إلى الفصاحة .. وقد فسَّرها بجزالة اللفظ وحسن المعنى ، متأثرًا في ذلك بشيخ المعتزلة أبي هاشم الجبائي الذي نقل هو نصًّا عنه متضمنًا هذا المعنى[2] .

ومع هذا .. فإن عبد الجبار لا يلغي أهمية النظم في فهم الإعجاز ، بل ينظر إليه باعتباره مظهرًا من مظاهر الفصاحة ، التي عليها المعول عنده في هذا المجال ، وقد انتهى إلى أسس جمالية قيمة : فقد قرر أن الفصاحة من صفات الأسلوب ، ولا تظهر في المفردات : « بل في الكلام بالضم ، ولابد مع الضم من اعتبار صفة لكل كلمة ، هذه الصفة قد تكون بالوضع ، أو بالإعراب أو بالموقع ، وإذا روعي هذا في بناء الأسلوب ظهرت فيه الفصاحة »[3] .

والباحث يرى أن عبد الجبار قد شرع للأسلوب الرفيع ، وهذا يجعلنا نقول : إنه قائل بأن الإعجاز يرجع إلى النظم والتأليف وإن حاول هو أن يتهرب من هذا . لأن تفسيره للفصاحة تضمن هذا القول .. ولا خلاف عنده إلا في العبارة أما المؤدي فواحد .

وكذلك يرى الزمخشري في « الكشاف » والسكاكي في « مقدمة المفتاح » حيث أوصيا بالبلاغة معاني وبيانًا من أجل فهم القرآن ومعرفة خصائصه[4] . وكذلك كان رأي الإمام محمد عبده[5].

(١،٢) المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار : ١٦/١٩٧- ط . وزارة الإرشاد .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٣٠ ، ومفتاح العلوم للسكاكي ص ٣٧ .

(٥) تفسير الذكر الحكيم .

ثالثًا : روحانية القرآن

قال بهذا الوجه كثيرون ، منهم مَن جعله وجهًا ضمن وجوه أخرى للإعجاز كالرماني وعبد الكريم الخطيب ، ومنهم مَن جعله الوجه الوحيد في فهم الإعجاز ، وقد قال بهذا المفكر فريد وجدي ، فقد تحمس وجدي لهذا الرأي ورفض كل ما عداه من آراء السابقين ، وله في إثبات رأيه محاولات كثيرة ، فنراه يقول :

« حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم ، في بيان الإعجاز من بلاغته فكتبوا في ذلك فصولاً ضافية الذيول ، وبعضهم خصَّها بالتأليف ـ وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة ، إلا إننا نرى أنها ليست هي الجهة الوحيدة لإعجازه .

بل ولا هي أكثر جهات إعجازه سلطانًا على النفس ، فإن للبلاغة على النفس سلطانًا محدودًا لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام ، والإقبال عليه ، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئًا فشيئًا بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس ، فلا يعود يُحدث فيها ما كان يُحدثه مبدأ توارده عليها .. وليس هذا شأن القرآن ، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيرًا ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان للقرآن على قلوب الملحدين »[1] .

ثم يكشف هو عن تلك العِلَّة فيقول :

« العِلَّة نظرنا في واضحة لا تحتاج إلى كثير تأمل ، وهي أن القرآن روح من أمر الله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى:٥٢) ، فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي ، مادة : « اقرأ » مجلد ٦٧٧/٧ .

فيحركها ويتسلط على أهوائها ، أما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها»[1] .

ثم ينتهي إلى قوله : «نعم . إن جهة إعجاز الكتاب الإلهي المقدَّس هي تلك الروحانيات العالية التي قلبت شكل العالَم»[2] .

ويرى وجدي أن هذا الرأي يحل كثيرًا من المشكلات فيقول :

«هذا رأينا في جهة إعجاز القرآن ، وهو ـ فيما نعلم ـ يحل كثيرًا من المشاكل في هذا البحث ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع . أما ما ولع به الناس من أن القرآن معجز لبلاغته ، وتجاوزه حدود الإمكان ، حتى وقع الإعجاز ببلاغته ، دون وجوه إعجازه الأخرى فلم نقف له على أثر في ذات القرآن ، مع أنه ورد ذِكر القرآن في آيات عدة لم نر في واحدة فيها ما يوافق ما يذهب إليه الآن الكثيرون»[3] .

والآن « وبعد أن ذكرنا رأيه ونصوصه ـ نسأل سؤالاً . مؤداه : ماذا يقصد وجدي بأنه لم يجد في آيات القرآن ما يدل على هذا المذهب ؟

إن كان يقصد عدم ورود شيء من الصور البلاغية في القرآن ـ وهذا بعيد جدًّا ـ فقد وَهِم .

وإن كان يقصد أن القرآن لم يُشر إلى أن وجه إعجازه مأخوذ من السمات البلاغية التي فيه ـ وهذا بعيد كذلك ـ فإنه أشد وقوعًا في الوهم ، لأن القرآن لم يقل إن وجه إعجازه كذا .

وإن كان يريد أن ليس في آيات القرآن ما يشير إلى امتداح الكلام البليغ ـ وهذا ممكن إرادته ـ فإنه قصور من الكاتب ؛ لأن في القرآن الكريم آية هي أظهر ما تكون امتداحًا للقول من جهة بلاغته ، ألم يقل سبحانه لرسوله عليه السلام : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) ؟ .

(١-٣) دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي ، مادة : «اقرأ» مجلد ٦٧٧/٧ .

والخلاصة .. إن وجدي قد بالغَ في نفي أن يكون للبلاغة دور في الإعجاز ، وبالغَ في إثبات رأيه في أن القرآن معجز لأنه روح من الله .. لأننا لو جاريناه على رأيه فمن أين تُدرَك هذه الروح ؟ أليست من خلال كلام وأسلوب ونظم .. أم تُدرَك من الفراغ ؟

رابعًا : الإعجاز لا يمكن وصفه

هذا رأي اثنين من العلماء : أبو يعقوب السكاكي ، وأبو حيان التوحيدي .

فقد قال السكاكي : « إن إعجاز القرآن يُدرَك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرَك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، كما يُدرَك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يُدرَك تحصيله لغير ذوي الفِطرة السليمة ، إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما »[1] .

وقال أبو حيان التوحيدي : « سُئِل بندار الفارسي عن موضع الإعجاز من القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس في الإنسان موضع من الإنسان .. بل متى أشرتَ إلى جملته فقد حققته . ودللت على ذاته ، كذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك آية في نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدًى لقائله ، وليس في طاقة البَشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه ، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده »[2] .

ولابن خلدون رأي شبيه بهذا ، إلا أن الممتنع عنده هو فهم جميع أسرار الإعجاز . أما بعضها فجائز لمن توافرت له وسيلة الفهم .

قال ابن خلدون : « وهذا الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما

---

(١) الإتقان للسيوطي : ١٧/١ .

(٢) الإتقان للسيوطي : ١٢٠/٢ ، والبرهان للزركشي : ٩٨/٢ .

يدرك بعض الشيء منه مَن كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول مَلكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه»[1] .

والذي يظهر من النظر في قولي السكاكي وأبي حيان يجد النزعة الفلسفية غالبة عليهما وإن ظهرت إلى حد الإسراف فيما نقله أبو حيان .. ورأيهما متطرف ، أما أي ابن خلدون فهو أقرب إلى الحقيقة كما ترى .

* الأسلوب المنطقي والعلمي : ويذهب بعض الباحثين[2] إلى أن من وجوه إعجاز القرآن الأسلوبين المنطقي والعلمي ، لأن العرب لم يكونوا يحسنون غير الأسلوب الخطابي من بين فنون النثر ، وقد حاول صاحب هذا الرأي أن يستدل على صحته جهد المستطاع ، وعلى طرافة ما ذهب إليه فقد رده بعض معاصريه .

* الموضوعية والتجرد : وهو أحدث رأي في الإعجاز حتى الآن ، قال به الدكتور محمد البهي في مقال طويل نشرته له الوعي الإسلامي[3] .

ويراد من الموضوعية شمول مبادئ القرآن ، ومن التجرد نزاهة أحكامه من الهوى ، وقد أقام الأدلة الواضحة والكثيرة مهتديًا بالنصوص القرآنية نفسها ، وهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن البياني ألا يعدم باحث دليلاً منه على رأي يرتئيه فيه ، وجهة تتضح فيه .

● **تعقيب ونقد :**

قدَّمنا حصيلة سريعة لآراء العلماء في الإعجاز القرآني ، وقد اقتصرنا في هذا البحث على المسائل الرئيسية في هذه المشكلة ، وغضضنا الطرف عن

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) هو المرحوم عبد الله عفيفي ، وقد نقده المرحوم محمود مصطفى ، انظر البيان القرآني : ص ٢٥٨ وما بعدها . دكتور رجب البيومي .

(٣) عدد ربيع الثاني سنة ١٣٩٣هـ .

كثير من المسائل الجزئية التي وُجِدَت في كتب الأقدمين مثل : بِمَ يقع الإعجاز؟ بالقرآن كله أم بأقل شيء فيه ؟ ، والإعجاز خاص بالعرب أو شامل لغيرهم من الأمم؟ ، وهل الإعجاز خاص بالقرآن ؟ أو شامل لغيره من الكتب السماوية ؟ ... إلى آخر هذه المسائل .

والذي يبدو واضحًا أمام الباحث من الآراء السابقة أن الإعجاز القرآني إنما هو قائم بنظمه وتأليفه بكل ما تحتمل هذه العبارة من مزايا النظم والتأليف ، فيدخل فيه اختيار اللفظ للدلالة على معنى معيَّن ، ثم موضعه من الجملة ، ثم أثره الصوتي الذي يمثل إيقاعًا ينتظم مع غيره فتتكون بذلك ظاهرة الإيقاع الصوتي الذي يمتاز القرآن بها عن سواه .

ويدخل في هذا الاعتبار ما في القرآن من اللمحات البلاغية من مجاز وتشبيه وتمثيل وكناية وتقديم وتأخير ، وفصل ووصل ، وإيجاز وإطناب ومساواة ، وذِكر وحذف وتوكيد وغير توكيد ... إلى آخر هذه الفنون .

ولستُ مع الذين ينقصون من قَدْر البلاغة العربية لا في مجال الإعجاز ولا في مجال غيره من الأساليب ، فالبلاغة تشريع وتوجيه لصياغة الأسلوب الجميل ، فليس الباقلاني ، وفريد وجدي بمنصفين حين أقصيا البلاغة والفصاحة عن ميدان فهم الإعجاز .

ولستُ مع عبد الجبار وأستاذه الجبائي حين يقرران أن روعة النظم شيء ، والفصاحة شيء آخر ، ولستُ أفهم على أي أساس بنيا هذه الفكرة فالأسلوب ذات .. وكل من الفصاحة والبلاغة عَرَض ، ولابد للعَرَض من ذات حاملة .. فلو كنا نعثر على بلاغة أو فصاحة في غير نظم وأسلوب : جاز لنا هذا التفريق ، أما ونحن غير واجدين البلاغة والفصاحة إلا وصفًا لكلام ، فإن هذه الآراء تبدو شيئًا قريبًا من المغالطات التي لن يقبلها منصف ..

● دور البلاغة في الأسلوب الجميل :

ولقد اهتمت البلاغة العربية بتوجيه الأسلوب ابتداءً من الحرف ، فالكلمة ، فالجملة ، فالأسلوب كله ، ولم تقصر في هذا الشأن ، وفصَّلت الكلام على

أقدار المخاطبين ، فكان اختلاف المقامات الذي يتبعه اختلاف في الكلام نفسه من إيجاز وإطناب ومساواة ... إلى آخر هذه الاعتبارات .

ومن توكيد مختلف الدرجة ، إلى خلو من التوكيد ، من ذِكر إلى حذف ، من تقديم إلى تأخير ، من إظهار إلى إضمار ، من وصل إلى فصل ، ولم تحجر على المتكلم بقوالب جامدة فأعطته الحرية في حُسن تقديره للاعتبارات المناسبة ، وجعلت من حقه أن يخالف الظاهر له من أحوال المخاطبين ويسلك بهم طريقًا غير الظاهر ما دام قد رأى اعتبارًا آخر مناسبًا يحسن أن يورد عليه الكلام ، فكان علم المعاني كفيلاً بهذه التوجيهات .

كما وُضِعَت الوسائل الكاشفة عن صور الخيال والمبالغة في إيراد المعاني ميَّسرة أمام المتحدث فيستعير ، ويتجوَّز ويُكنِّي ويُمثِّل ، ولا شك أن البليغ الذي يوفق لأن يضع أسلوبه على هدى من توجيهات البلاغة والفصاحة موضع إعجاب كبير عند العالِمين بجودة الأسلوب وأثره القوي في النفس ، وكان علم البيان خير معين في هذا المجال .

وأمام المتحدث وصايا عدة لتحسين اللفظ أو المعنى كفلها علم البديع الذي ليس هو مظهر ترف في الأسلوب وإنما هو دعامة من دعائم إجادته وصقله .

إن عبد القاهر الجرجاني قد أقام نظرية كاملة في كتابه « دلائل الإعجاز » لم ينحرف وهو يضع أسسها عن توجيهات البلاغة ، وما زال كتابه فتحًا جديدًا في هذا المجال .

كما كان كتابه « أسرار البلاغة » ذا أهمية خاصة في التوجيه البلاغي والنقد الجمالي الفني .

إننا ما دمنا نقول ونرجِّح أن إعجاز القرآن إنما هو بنظمه وروعة تأليفه فإن البلاغة والفصاحة تمثلان لنا أكبر دعامتين في بيان جودة النظم وروعة التأليف في حقائقه ومجازاته وبدائعه ، في معانيه وبيانه .

وقد أبان السكاكي وظيفة البيان والمعاني في بناء الأسلوب وسلامة الحكم عليه فقال : « إن الوقوف على تمام مراد الحكيم تعالى ، وما تقدَّس من كلامه ، مفتقر إلى هذين العلمين ـ أي البيان والمعاني ـ كل الافتقار ، فالويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل»[1] .

وقد أشار الزمخشري إلى هذا المعنى[2] ، وبنى عليه منهجه في التفسير ، فكانت التوجيهات البلاغية طابعًا غالبًا على تفسيره كما أخذ بها العلاَّمة أبو السعود فحفل تفسيره بالكشف عن مواطن الجمال في القرآن الكريم على هدى من توجيهات البلاغة .

ويقول أبو هلال : « وحُسن الرصف أن توضع الألفاظ مواضعها ، وتُمكَّن في أماكنها ، ولا يُستعمل فيها التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ـ إلا حذفًا لا يفسد الكلام ـ ولا يعمى المعنى ، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها ، وتضاف إلى لفقها »[3] .

هذه سمات الأسلوب الجيد كما يراها أبو هلال العسكري .. وهل هذه التوجيهات خارجة عن مفهوم البلاغة ؟

ومن هنا يُعلم أن كل أسلوب جميل لا غِنى فيه عن توجيهات البلاغة ، ودقة التزام الإرشاد البلاغي هو الذي أبدى الأسلوب في شكله الجميع الرائع .

على أننا نرى أن هناك مواضع في القرآن الكريم لا بد من تخريجها بلاغيًا وإلا وقعنا فيما يشبه المحظور .

وذلك في المواضع التي أثبتت لله ـ سبحانه ـ جارحة كقوله تعالى :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح:١٠).

وقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الأعراف:٥٤) .

---

(١) مفتاح العلوم : أبو يعقوب السكاكى ص ٧٠ .

(٢) مقدمة الكشاف : ١/٣٠ .

(٣) الصناعتين أبو هلال العسكري ص ١٢٠ ـ ط . الآستانة .

فإذا نحينا مذهب «السَّلَف» القائل بالتسليم ، فإن منهج «الخَلَف» الآخذ بالتأويل يقول بأنها القُدرة ، ففي التعبير مجاز مرسل علاقته المحلية ، لأن القُدرة محلها اليد .

وفسَّروا : «استوى» ـ بالاستيلاء بمعنى سلطان الله المسيطر على العرش ، وعلى كل شيء ، كما فسَّروا الظروف التي تدل على المكان مضافة إلى الله مثل «عند» في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ (ص:٤٧) . بالعلم ـ أي في علمنا ، وكثير من هذه المشاكل التي تمس العقيدة قد تخرَّجت تخريجًا بلاغيًّا ارتاحت معه النفس واطمأنت إليه العقول أيما اطمئنان .

• رأي جامع :

بقي رأي آخر ذكره الزركشي[1] وقال : إن أهل التحقيق على هذا الرأي ، ومحصله أن الإعجاز وقع بكل ما سبق من الأقوال ، لا بواحد على انفراده ، فإنه جمع ذلك كله فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مما لم يسبق .

فمنها الروعة التي في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقرون والجاحدون ، ثم إنَّ سامعه إن كان مؤمنًا به يداخله روعة في أول سماعه وخشية ، ثم لا يزال يجد في قلبه هشاشة إليه ومحبة له ، وإن كان جاحدًا وجد فيه مع تلك الروعة نفوراً لانقطاع مادته بحسن سمعه .

ومنها : أنه لا يزال غضًّا طريًّا في أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئين .

ومنها : جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البَشر ، لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة ، والعذوبة منها ما يضادها من السلالة والسهولة ، فمَن نحا نحو الصورة الأولى فإنما يقصد الفخامة والروعة في الأسماع .. ومَن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام في الأسماع أعذب وأشهى وألذ .. وترى ألفاظ

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي : ٢/١٠٦ .

القرآن قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين .. وذلك أعظم وجوه البلاغة في الإعجاز .

ومنها : جعله آخر الكتب غنيًّا عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه كما قال :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل:٧٦).

فأنت ترى ـ حتى مع هذا الرأي الموفق بين جميع الآراء ـ قد نوَّه بما للبلاغة من أثر في الإعجاز . فقال : « وذلك أعظم وجوه البلاغة في الإعجاز ». ونحن لا نرى حَرَجًا أن يُضاف إلى الإعجاز البياني إعجاز آخر ، ما دام النظم هو موضع الإعجاز الأول .

* * *